أثر المرأة فى النهضة القومية

للآنسة فلك طرزى

فى هذه الآونة العصيبة التى تجتاز فيها الدول الأوربية أزمة سياسية خطرة قد تؤدي إلى حرب طاحنة تقضى على ما بذلته الأمم المتمدنة من جهود فى سبيل رفع المستوى الانسانى وإيصاله إلى المثل الأعلى المنشود — يجدر بنا نحن الذين تضمنا حالتنا الحاضرة إزاء مشاكل دولية دقيقة ، أن نلقى نظرة على أحوالنا الشخصية منها والعامة ، نظرة نافذة ثاقبة نسبر بها أغوارنا ، لنفحص على بينة ووضوح كل ناحية من نواحى هذه الأمة ، فان اهتدينا إلى تشخيص العلة الأساسية التى تسبب لنا أنواعاً من الآلام والأسقام ، استطعنا بعد دقيق الفحص وبُعْدِ التأمل ، إيجاد العلاج الذى يبرئنا شيئاً فشيئاً من هاتيك الآلام والأسقام

ولقد جربنا على عادة لست أدرى أأنسب ما نحن فيه من قلق وفوضى إليها ، أم أنسبه إلى الظروف الطارئة التى كانت الحائل بيننا وبين ما نصبو إليه جميعاً من واسع الآمال والأماني التى نبتغيها كاملة صحيحة ؟

جربنا على أن نبذل فى مجتمعنا الكثير من بضاعة الكلام ، ونعرض على الأنظار أشكالا مختلفة من أجناسها وألوانها ثم نهمل العناية بتحويل هذه البضاعة إلى صنوف من العمل المثمر ، لنبصر بالعين ما سمعناه بالأذن ، ونلمس باليد ما صورناه بالكلام

وتأصلت هذه العادة فى أنفسنا بحكم ما أوليناها من شديد الرعاية والعناية ، وأخذت تضغط بقوة أثرها الذى تتغلغل فى كل خفية من خفايا نفوسنا على بقية القوى الكامنة فينا التى فى استطاعتنا إذا تعرفنا الوسائل المعهدة لسبيل إبرازها — أن نستغلها أحسن استغلال فنستعين بما تمنحنا من رغبة فى العمل وصبر على الجهاد ، على تذليل العثرات التى قد تعترض سبيلنا أثناء قيامنا بتحقيق أقدس الأهداف وأنبلها

فأى كلام يبشرنا بنهضة اجتماعية مباركة تضاهى النهضات الأوربية الحديثة لم نسمعه ؟

وأى كلام ينبئنا فحواه بمستقبل نير وضاح يبدد سطوع شموسه ما تراكم من سحب وغيوم على سماء حياتنا فحجب رونقها وصفاءها ، لم نصغ إليه ؟

بل أية آمال وضاءة لألأة لم نبصرها شذرات متفرقات فى هبوب الريح بعد أن أصغينا إلى رنين ضحكاتها يتردد بين قيم الألفاظ وجميل العبارات ؟

لقد سمعنا كلمة «البشرى» تتردد على الأفواه حلوة فحسبناها لفظاً مبطناً بحقيقة تحمل إلينا ما فى الحياة من معانى الكمال والحق

وسمعنا كلمة « المستقبل » ترتل أناشيدها الشفاه ، فحسبناها لحناً مستمداً من القلب تكمن وراءه الحيوية المبدعة الخالقة

ثم أصغينا إلى صوت الأمل تتجاوب نبراته بين السطور ، فحسبناه أغنية تهدهد أنفسنا المظلمة المكدودة على نغماتها وتدعونا إلى ستة من عميق النوم ولذيذه ، فلبينا ما حسبناه صواباً ورحنا فى سبات عميق استغرق سنين طوالاً فقدنا خلالها الكثير من الصفات الشخصية والشعبية ، تخملت حيويتنا ، وبلد تفكيرنا ، وانحصرت عقليتنا ضمن ذاكرة تحدها الأوهام وأشباح التقاليد البالية التى قضت عليها وبددت ظلماتها أنوار العلم والثقافة

ولما استيقظنا من نومنا ، واستفقنا من سباتنا ، تلفتنا يمنة ويسرة ، وأدرنا رؤوسنا ناحية الغرب وناحية الشرق ، فإذا بكل من هذه اللفتات تضع أنظارنا المشدوهة إزاء تطورات قومية وشعبية ، وتنبه حواسنا المخدرة على انقلابات فكرية وعقلية ، فمن أقاصى الشرق إلى أقاصى الغرب ، تحفز نحو المجد والتقدم ، كل أمة تجاهد وتستميت فى سبيل التفوق وفرض السيادة على العالم سواء من الناحية العلمية أم الفكرية ، أم التجارية . وقد رأينا كيف أخذت اليابان تكتسح الأسواق العالمية ببضائعها وتجارتها . وعمدت بعض الأمم إلى التمسك بنظرية تفوق جنسها على بقية الأجناس البشرية لبلوغ ما تصبو إليه من عزة وقوة وفخار . كل هذه القوى الفعالة التى مهدت لها سبيل البروز والظهور الحرب العالمية الكبرى وما ينتج عنها من التطورات والانقلابات تجرى حوادثها أمام أنظارنا ، فنسمع بالخيال قرقعة الأسلحة والمدافع تدوى وتنذر بالويل والتهديم ، وهى ما زالت آلات مفككة تحت آلات المصانع ، وندرك بالعقل

مبلغ الرقي الذى توصلت إليه فى الغرب الآداب على تنوع بحوثها والعلوم على مختلف أنواعها ، والفنون على تعـدد فروعها ، تلك القواعد الثلاث التى لا تقام حضارة أمة بغير أسسها ، وتتعرف بالاختبار أى أثر بليغ تتركه التربية العائلية فى نفوس الناشئة ، وأية توجيهات مختلفة توجهها المبادئ التى تتلقاها فى محيط الأسرة حين الصغر ، فالناشئة التى تزدهر سنو طفولتهـا فى وسط يدرك الحياة على حقيقتها ويتعمق فى معانيها ويسبر غاياتها ، هى غير تلك التى تنمو وتشب فى آخر لا يدرك من الحياة إلا سطحها ، ولا يفقه من معانيها وغاياتها إلا قشورها دون لبابها

ثم نلق نظرة إجمالية إلى تلك القوى التى تسير العالم المتمدن فنراها منهزمة مرة ، منتصرة أخرى ، ناهضة تارة ، منحطة تارة أخرى ، مجسمة فى حال نهضتها وانحطاطها ، وانتصارها وانهزامها ، صورة الانسان فى آلامه وآماله وجبروته وعجزه ، وبطشه وضعفه ، وطموحه ومطامعه ، صورة الانسان الذى كلما اكتمل تكوينه العقلى والجسدى ، اكتشف نقائص جديدة تخل من توازنهما فيعمد إلى مختلف الوسائل يتوسل بهـا لتقويتها وضبط هذا التوازن بينهما

وكثيراً ما يتعثر بالصدمات فينهزم حيناً تعود بعـده نغمة الأمل تتنفس فى صدره حارة تمنحه قوة أشد بأساً من كل قوة تنسيه فشله وهزيمته ، فيعاود الكفاح والمناضلة من جديد ، وكلما عراه ضعف يقاومه بالارادة والطموح النفسي إلى أن يتغلب عليه

فأي شعور يعترينا يا ترى ساعة يتجسم فى خيلاتنا بعض من صور هذه القوى التى عرضتها الآن ؟

بل أى إحساس نتحسسه عند ما نأخذ بتقييد كل صنف من صنوف الرقى الذى أمدته الأمم كل بمن هذه القوى ومهدت له السبيل لتحقيق غاية من الغايات ؟

لاشك أننا نتحسر وتنقبض صدورنا ألما كلما تنازعتنا فكرة نهضتنا القومية الفتية وإلى جانبها النهضات القومية الأخرى التى قطعت شوطاً بعيداً فى مضمار التقدم والحضارة

وثقن أيتها السيدات أنى لا أبغي من تساؤلي هـذا إضافة حسرة جديدة إلى ما نشعر به من حسرات تتمشى بين جنباتنا كلما شاعت فى نفوسنا مرارة هذا التساؤل

وإنى ما تساءلته قط إلا ليقيني بأنه يدور فى خلد كل منا ، وإننا جميعاً مذ أخذت أنفاس اليقظة تنفح على وجوهنا نفحات الجـد والتوثب ، لا نفتأ نولى أنظارنا ناحية الغـرب نتبع حركاته وخطواته ونرقب تطوراته ، نستعين بما يسن من قوانين ودساتير على تنظيم هيئاتنا الحكومية والادارية ، ثم نقبس من مدنيته قبسات تجعل حياتنا شبيهة بالحياة الغربية من بعض نواحيها

ولم لا نتساءل ، وبالتساؤل نتعرف مدى شعورنا ومبلغ قوته وغزارته ؟

ولم لا نتساءل وبالتساؤل نزداد إحساساً بنقائصنا ؛ وكلما ازددنا إحساساً بهـا ازددنا رغبة فى التبرؤ منها ؛ وليس الشعور بها شعوراً دقيقاً صحيحاً إلا بشيراً بزوالها

فنحن إذن المرضي ، ونحن إذن الأطباء ، نسمع أنات الألم تزفرها صدورنا المكلومة فنكف على هذه الصدور نتشخص داءها ونتبين علتها ، فاذا ما انكشفت العلة والداء سهل علينا وصف الدواء الذى يجدد قوى أمتنا ويشفيها من آلامها

إن أمتنا مريضة فى هذه الآونة أيتها السيدات ؛ ومرضها لا تشكو منه ناحية من جسمها دون بقية النواحى ، إنما هو مرض يشمل جميع أطرافها ويخشى عليها من فتكه ، إذا لم نسارع إلى إنقاذها من براثنه هى مريضة فى تفكيرها ، مريضة فى ثقافتها ، مريضة فى عقليتها ، مريضة فى أخلاقها ، ثم هى مريضة بسبب العلة المزمنة التى أصابت موضع القلب منها

فأى شأن من هذه الشئون يعالج قبل الآخر يا ترى ، ليتم لنا ما نريد ونبلغ ما نصبو إليه جميعاً من صميم أنفسنا ؟

أنعالج ثقافتها ، والعقلية التى تهضم هذه الثقافة وتستسيغها ما زالت قلقة مقيدة ؟

أم نعالج أخلاقها ، والأداة التى تعالج بها هذه الأخلاق — وأعنى بها الارادة — ما برحت ضعيفة واهنة ؟

أم نعالج الفكر ، والصلة الوثقى التى تربط الفكر بكل ما فى هذا الكون من خفايا الأمور وأسرارها مفككة الأجزاء ؟

أنا أرى أن أول شأن يجب معالجته قبل بقية الشؤون هذا القلب ، أيتها السيدات ، لأنه ميزان الحياة الدقيق ، والصلة التى تربط الانسان بها ، ومتى قامت بين الانسان والحياة رابطة متينة تتغلغل

فكره فى زواياها وخلاياها وأدرك كل معنى من دقيق معانيها ، وشعر بها تتفجر فى أعماقه قوة وحيوية

فان كان القلب سليما خفاقاً ، جرت الحياة فى شرايين الجسم حارة متدفقة

وإن كان سقيماً عليلاً بلدت حركتها واعتراها كثير من الضعف والخمول

فاذا نحن عالجنا القلب ودققنا فى تشخيص دائه ، فمعنى ذلك أن كل واحدة منا انمكفت على ذاتها ، وأخذت تفحص هـذه الذات على نور من البينة ، فان بدا لها ضيق فى ناحية من نواحيها وسمته ، وإن اتضح لها نقص قومته ، لأن المرأة من هيكل الأمة بمثابة القلب من جسم الانسان يضبط توازنه ، وينظم الحركة الحيوية فيه

وقد يعترض على قولى هذا معترض ، ويخالفنى مخالف ، مبيناً ما نزعمه من خطأ هذا القول . غير أن فى نفسى من العقيدة المبنية على عديد التجارب ، ما يجعلنى أومن بهذه الحقيقة إيماناً صحيحاً لا يخامره شك ولا يزعزعه ريب .

ولم لا نقر بهـا وكلنا يعلم أن المرأة مربية الرجل ومهذبته ، ومعلمته الأولى فى مدرسة الحياة ؟

ولمَ نرتاب فى صحتها وقد علمنا الماضى من تاريخ الانسانية وحاضره أن نصف الأمة لا يصلح إذا بقى نصفه الآخر مشلولا ؟

بل لم لا نأخذ هـذه الحقيقة بعين الاعتبار ، وقد لمسنا أثر المرأة البعيد واضحاً فى تكوين نفسية الطفل ، وعرفنا مدى تأثيرها فى حضارة الأمم ؟

فنحن إذا نفذنا إلى دخيلة أمتنا وتغلغلنا فى كل مناحيها ، مرهفين السمع إلى دقات الحياة ينبض بها قلبها ، فماذا نسمع أيتها السيدات ؟

أنسمع دقات يؤلف مجموعها وحدة موسيقية جميلة اللحن ، منسجمة النغم ، تطرب لسماعها القلوب وتُسَر ؟

كلا ! إننا لا نسمع إلا دقات متفرقات ، تنبض مضطربة حائرة ، لا تكاد دقة منها تنبعث من بين الضلوع متزنة قوية ، حتى تتبعها أخرى وأخرى ، تعيد القلب إلى مجرى الفتور والخمول الذى كان عليه .

فالمريض إذن من جسم أمتنا هو القلب ، وأول الأدواء الذى تجب مداواته هو داؤه لأن عقـل الأمة المفكر الذى هو الرجل لا يصبح دقيقاً صحيحاً إلا إذا شفى هذا القلب وعاد ملاذاً أميناً يأوى إليه العقل ليجدد بقربه قواه الفكرية ، ويستمين ببصيرته النافذة على استكشاف ما غمض عليه من أمور .

منذ أيام كنت أتحدث إلى عالم جليل وزعيم فى طليعة الزعماء الذين أحيوا الحركة القومية فى هذه البلاد وبعثوها حية من تحت أردية الموت . ومما قال لى هـذه الجملة التى ينطوى معناها الدقيق على حقيقة بليغة :

« إذا أبصرت عبقرية تشع أنوارها وتتلألأ فى سماء المجـد ساطعة ، فأيقنى أن وراءها امرأة توقد جذوتها وتبعثها من مكمنها . »

عبقرية تبعث فيهـا الحياة امرأة ؛ وتوقد شعلتها المقدسة فتحولها نوراً ينشر ضياءه اللامع على مشارق الأرض ومغاربها ، مخترقاً النفس البشرية موضحاً ما غمض من أمورها ، كاشفاً ماخفى من ألغازها ؟

إنهـا نغمة انبعثت أول ما انبعثت من أرض عربية ، ثم انتشرت على بقية الآفاق فغناها أبناء الغرب وما زالوا يتغنون بها بينما نحن نسينا لحنها

إنها نغمة انبعثت إلى الوجود يوم انبثق فجر الرسالة العربية من آفاق غار حراء ، وأخذت أشعته النيرة تخترق قلب كل عربى فتبدل كفره إيماناً ، وشكوكه ثقة وعقيدة ، ويوم كانت إلى جانب الرسول العربى الكريم امرأة تحمى عبقرية النبوة فى قلبه كلما أصابتها فرية من سهام المفترين

غير أننى لا أحمل المرأة وحدها تبعات هـذا النسيان ؛ فلشريكها الرجل نصيب غير ضئيل منها ، لأنه أهمل شأنها زمناً طويلاً وأسرف فى هـذا الاهمال ، فكان من جرائه أنها بقيت قابعة فى زاوية مظلمة من زوايا الحياة لا تشترك فى أمر من أمورها حتى تكوّن لدى الكثير من الرجال اليقين بأنها مخلوق وجد ليحيا على هامش الحيـاة ، وأن جميع حقوقهـا وامتيازاتها محفوظة للرجل فى كل زمان وفى كل مكان

لست فى حاجة ، أيتها السيدات ، إلى إثبات خطأ هذا الادعاء ،

لأن جسامة خطئه واضحة فيه . بل ما أريده هو كشف اللثام عن ادعاء لست أدري أيسر التصريح به أسيادنا الرجال أم يغضبهم

إن إسراف الرجل في أنانيته قد حمله على إبعاد المرأة عن جدّ الأمور وخطيرها معللاً ذلك بسبب تجردها من الصفات العقلية والفكرية التي تمكنها من إدراك دقائق هـذه الأمور وتقدير خطورتها

وكأني بهـذه الدعوى بل هـذه النظرية المبنية على غير الواقع قد سرت بالعدوى إلى المرأة فأخذ وهمها يستولي عليها مع مرور الزمن شيئاً فشيئاً حتى أضحت لديها حقيقة واقعة يخيل إليها أنها تبصر وميضها يشرق من نوافذ عقل الرجل ناسية أنها الأم التي أنشأته طفلاً وكونته رجلاً ، وأنهـا الزوج التي قاسمته الحياة على السراء والضراء . فنشأ فيها من جراء هذه الخاطئة ضعف أضاف إلى ضعفها الطبيعي ضعفاً آخر ، وجعل منها برهاناً يدعم به الرجل صحة دعواه ، ودليلاً يثبت خطأ هذه الدعوى

وقد انطبعت في المرأة السورية هـذه العقيدة المغلوطة ، وتمكنت من عقلها إلى حد حملها على اليقين بصحة النقص القائم بينها وبين الرجل ، وأنها حقاً دونه عقلاً وفكراً وإدراكاً ، وتناست أن مستواها العقلي والفكري كان قد يساوي المستوى العقلي والفكري عند الرجل ، لو أن أنانية هذا لم توح إليه باهمال شأنها وإهمال رفع مستواها إلى أوج الكمال النسبي

فأخذت نظرته إليهـا — أي الرجل — تنحط مع الزمن وتنحصر ضمن نطاق محدود ، وأخذ اعتباره إياها يتضاءل يوماً بعد يوم ، حتى أصبح ذات يوم وفي نفسه نحوها احتقار يبيح لذاته الحط من قيمتها واعتبارها وسيلة من وسائل اللهو والتسخير

فليس عجباً أن نفيق بعـد هجمتنا الطويلة فنبصر حال المرأة في أوساطنا متقهقرة ، وقد أدركنا سر هذا التقهقر . وليس يستغرب أن نرى الرجل في هذه الأوساط ناقص التربية ناقص التهذيب وقد وقفنا على سبب ذلك النقص . إنما المستغرب في كل هذه الأمور أن ندرك سرها وأسبابها ثم نقف عند حدود الادراك دون أن نتجاوزه إلى حيز العمل ، حيث تظهر حقيقـة المرأة ويسطع جوهرها

وفي المرأة أيتها السيدات صفات فطرية مفقودة عند الرجل فهي حساسة بغريزتها رقيقة بطبيعتها ، والحس والرقة صفات إذا توصلت المرأة إلى صقلها وتهذيبها استحالت من مخلوق بشري إلى ملاك سماوي يحمل بين جوانحه معاني الرأفة والحب والسلام

والمرأة شاعرة بطبعها وفطرتها ، فإن هي عرفت كيف تنمي هذه الشاعرية فيها ، وعرفت كيف تغذيها ، تحولت كوكباً ينبعث من صميم الحياة نوراً ينشر على هـذه الحياة أشعة من الود والصفاء

فأثر المرأة لا يظهر جلياً واضحاً في النهضات القومية ولا يخلف بعـده أفضالا وحسنات ترفع الأمة من الحضيض إلى الملاء ، إلا حين يستيقظ فيها الحس العميق بوجوب تهذيب الصفات الطبيعية التي فطرت عليها ، وتحويلها من غريزة إلى شعور سام رفيع ، يجعل من رسالتها إلى الأمة ، رسالة الحياة وكل ما تحوي هذه الحياة من معاني المجد والحضارة والازدهار .

فلنستمن سيداتي بما ترك لنا أولئك الذين أدركوا النفس البشرية على حقيقتها ، واستطاعوا بقوة بصيرتهم اختراق لفائفها والنفاذ إلى أعمق موضع فيها ، لنستعين بأنوار نفوسهم على إنارة نفوسنا ، فإذا ما نفذت هذه إلى أعماقنا واستقرت فتحت أعيننا على عوالم من مختلف المشاعر والعواطف تحيا في هذه الأعماق فتهدينا إلى كل موضع من مواضع السحر والجمال التي يحويها العالم الخارجي لنتأمل مفاتنه ونصغي إلى موسيقاه ، فمن كان له قوة التأمل وقدرة الاصغاء أدرك كبائر الحياة وصغائرها . ويخيل إلى أن نجاح أمتنا وحضارتهـا متوقفان على دقة البصر وإرهاف السمع . ومن غير المرأة التي فطرت على الاحساس يدرك هذه الدقائق ؟ .

« دمشق » فلك لمزي

إلى رؤساء المدارس

أستاذ ماهر في اللغة الإنجليزية . ماجستير في العلوم والآداب . متخرج من جامعة شهيرة . مارس فن التدريس مدة طويلة : يدرس حالياً في إحدى الكليات الإنجليزية بمصر . لديه من الوقت للتدريس في مدرسة أو كلية أخرى

المخابرة مع الأستاذ جاريد

صندوق البوستة رقم ٢ بمصر